الأطفال وقصص الحيوان (فى الأدب عامة، وأدب الأطفال خاصة)

الأطفال وقصص الحيوان

(فى الأدب عامة، وأدب الأطفال خاصة)

عبدالتواب يوسف

تلقى ألف ليلة وليلة نعسقًا بوليسيًا، بقدر ما تلقى من حفاوة علمية وأدبية، وليت خصوم هذا الكتاب يقرأون ما قاله "فولتير" : إنه لم يزاول كتابة القصة إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة ما يزيد على أربع عشرة مرة !، وقد تمنى "ستاندال" أن يمحو الله من ذاكرته "ألف ليلة" حتى يعيد قرائتها والاستمتاع بها من جديد.. أما "جوته" فإن عبير ألف ليلة يفوح من "ديوان الشرق والغرب".. وما من كاتب أو أديب أجنبى نسأله عما قرأه فى العربية، فلا نحظى منه إلا بعبارة "ألف ليلة".. ما لنا نمتشق الحسام ونقاتلها بين الحين والآخر كأنما هى رجس من عمل

الشيطان، فى نفس الوقت الذى نتخذها مظلة أدبية لنا فى المحافل والمؤتمرات العالمية، ونتحدث عنها فى فخر وإعجاب شديدين؟!

كان هذا واحدًا من المنطلقات التى حفزتنى إلى اقتراح حلقة دراسية حول ألف ليلة وأثرها فى أدب الأطفال العالمى.. فما من عمل لهم إلا وكان لهذا التراث الخالد أثر عليه خفى أو واضح، كما أن تلك الدراسة الرفيعة المستوى التى قدمتها عنها الأستاذة الجليلة الدكتورة سهير القلماوى قد جلت الكثير من الغموض الذى يدور حول هذه القصص، ويجدر بنا الاحتفال بصاحبة الدراسة، والدراسة ذاتها، وأثرها على أدب الأطفال فى بلادنا وخارجها..

وكان نصيبى موضوع قصص الحيوان فى ألف ليلة، وقد دار حوله الفصل الرابع من كتاب الأستاذة الدكتورة سهير القلماوى، واعتمادًا عليه، وانطلاقا منه تأتى هذه الدراسة التى تعرض لقصص الحيوان التى تكتب للأطفال منذ عهد مصر القديمة إلى يومنا هذا..

الطفل وعلاقته الوطيدة بالحيوان :

علاقة الطفل بالحيوان وطيدة وثيقة، نستطيع أن نلمسها فى يسر وسهولة، بل أن فى مقدورنا أن نقول بالتشابه بينهما إلى حد كبير فى مطلع العمر.. والأطفال فيما يبدو يحسون بهذا، ونراهم مفتونون بالحيوان : الرضيع يتابعه بعينيه، والحضين يحاول الوصول إليه، وعندما يتمكن الصغير من نطق كلمتى: بابا وماما تأتى على أثرهما كلمة بوبى وبوسى وغيرها.. وهم فى كل اللغات يترنمون بأغنيات عنها (قطتى نميرة)، وفى مقدورهم تمييز أصواتها بل تقليدها فى بعض الأحيان، كما أن فى استطاعتهم معرفة صورها فى المجلات والكتب، وهم يتعاملون مع الأليف منها إذا ما التقوا به، ويعرفون المفترس إذا أتيحت لهم زيارة حدائق الحيوان، لذلك فما أن يصير الصغير فى سن المدرسة حتى يستطيع أن يسمى عشرات الحيوانات قد يكون من بينها الخرتيت والكانجارو..

وتأتى قبل ذلك، وبعده، قصص الحيوان التى تلقى ترحيبًا من الأطفال منذ البداية، سواء كانت هذه القصص من مصر القديمة، أو عن أيسوب اليونانى، أو كليلة ودمنة، أو لافونتين.. وعندما يتقدم الأطفال فى العمر يقبلون على القصص الواقعى عن الحيوان، بعد أن ينفضوا أيديهم من قصص الحيوانات المتكلمة، وأغلبهم يفتنون بحكايات الحيوان على مدى العمر، وطوال الحياة، ويتابعونها

فى لهفة فى الصحف والمجلات، وعلى شاشة التليفزيون والسينما.. ومن هنا يأتى الاهتمام بها – للأطفال والكبار معًا – وعلى مدى التاريخ كان هناك فيض منها، أمتع الإنسانية جيلًا بعد جيل، وسوف يمتعها على الدوام.

ويغنينا كتاب د. سهير القلماوى عن التاريخ لقصص الحيوان منذ كان على جدران معابد الفراعنة، ومخطوطًا فى ورق البردى إلى عصرنا هذا، ولو أننا بحاجة إلى الحديث عما يدور فى هذا المجال للأطفال عالميًا : نقلًا عن ألف ليلة، أو تقليدًا لها أو تأثرًا بها.. بل وماذا "بعدها" ؟ وماذا تجاوزًا لها ؟!.. إننا نعيش عصر للإبداع والابتكار، ومن هنا تأتى صرخاتنا للأجيال الجديدة بضرورة الأمانة العلمية فى النقل، وحتمية محاولة التأليف والإبداع.

قصص الحيوان ثلاثة ألوان :

وقصص الحيوان فى أغلب صورها – كما تقول أربثنوت فى مجلدها الضخم عن كتب الأطفال – لا تتجاوز ألوان ثلاثة..

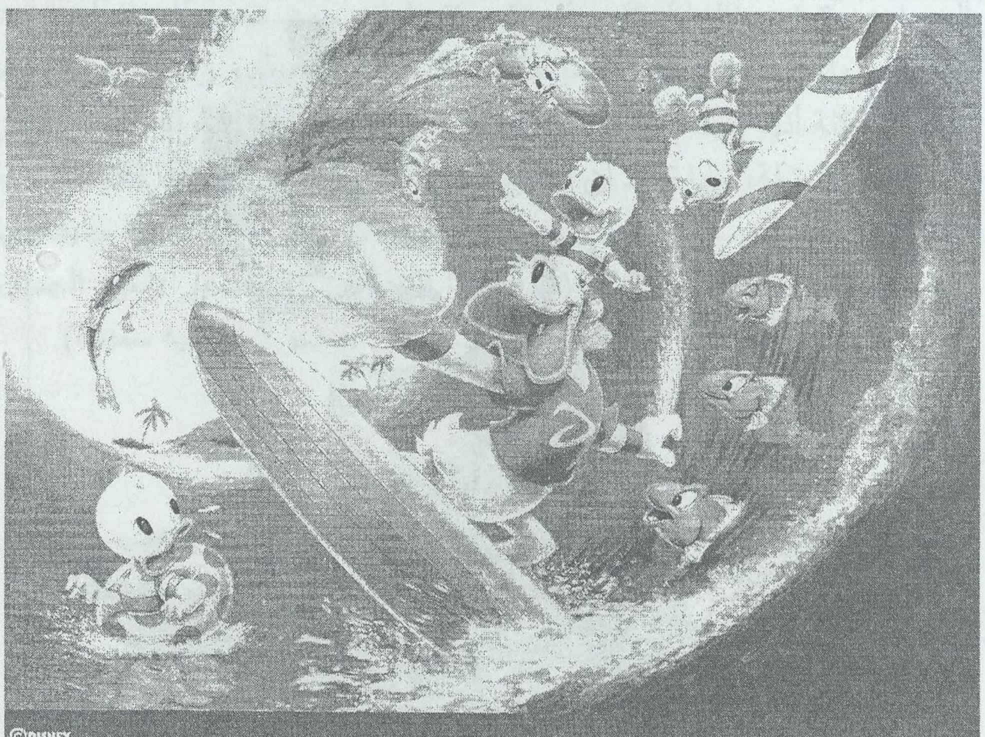

أولا : <u>الحيوانات المتكلمة</u> (أو نحن داخل فراء، وعندما يكسونا الريش).. والحيوان هنا يتخذ شخصية الإنسان، وكل ميزاته، وهذا اللون من القصص ليس علميًا على الإطلاق، وإن كانت له صفة العالمية، وهو موجود بوضوح فى الفلكلور والقصص الشعبى، (لعل أوضح مثال له : عنق الزرافة وقصص أخرى. أذان الديك وقصص أخرى – دار الشعب).. والحيوانات هنا تتحدث مع بعضها البعض، وقد تتحدث إلى الإنسان ويتحدث إليها.. إننا قد نحكى عن أرنب أو بطة، مع أننا فى واقع الأمر نحكى عن أنفسنا، أو عن جانب منها، محاولين التغلب على المشكلات والصعوبات التى تواجهنا، والحيوانات فى (عاصفة فى الصفصاف) أقرب ما تكون جيرانًا وأصدقاء لنا وليست مجرد ضفادع تعيش فى الماء.. وهذا اللون مرح، وفكه، وله مغزى أخلاقى.. ولعل هذا هو السبب فى أنه لم يندثر، ولن ينتهى أبدًا، لأنه يضحكنا من أنفسنا وغبائنا.. إن (دونالدك) أو بطة والت ديزنى العصبية تذكرنا بشخص ما، هى طبعة جديدة فيها مبالغة من واحد نعرفه يعلن دومًا غضبه وضيقه بصوته الخشن المشحون.

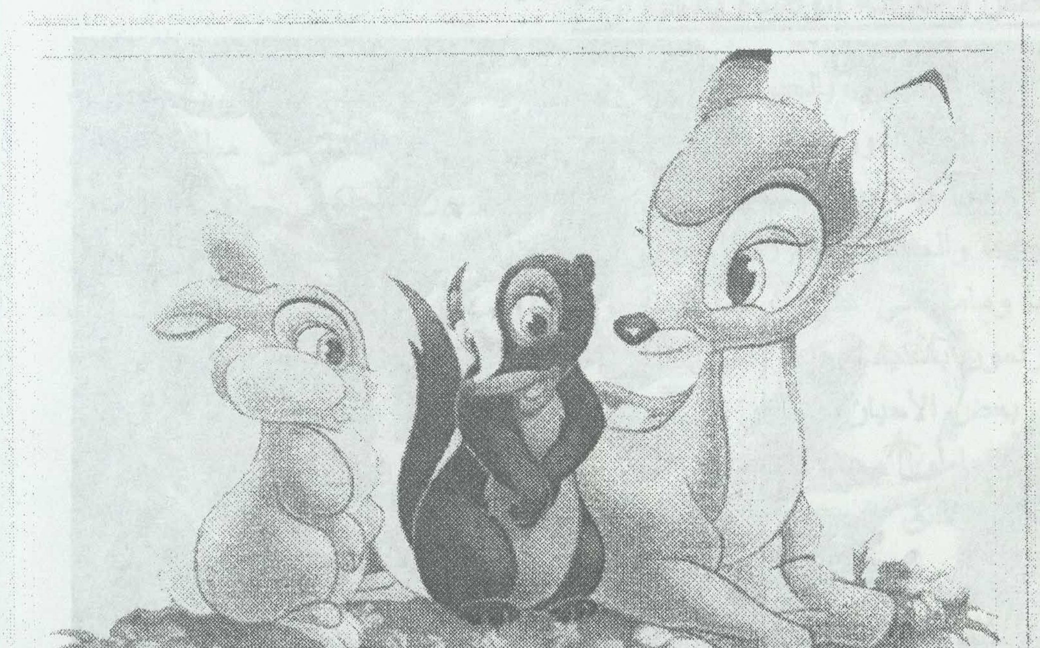

ثانيًا : حيوانات تبقى حيوانات كما هى، فقط هى تتكلم، ولا تخرج عن صفاتها الحيوانية، بل تلتزم بها – علميًا – فقط هى تتكلم وتنطق.. وفى (كتاب الأدغال) – كتبه كبلنج، وترجمته السيدة أمينة السعيد فى سلسلة أولادنا جزأين من أجزائه الأربعة – يحاول موجلى أن يعرف لغة أصدقائه ذوات الأربعة أرجل، ويتحدث إليها كما يتحدث إلى أصحابه وأفراد أسرته، لكن يبقى الدب دبًا، له تجربة الدب، وكذلك الثعبان، ولا يستشار إلا عند الضرورة القصوى، وفى قصة (بامبى) – للكاتب فلكس سالتين – تتكلم الغزالة على أنها غزالة – لا أكثر ولا أقل – وتتحدث فى شئون الغزال، لا فى شئون البشر – وقد ترجمها الأستاذ شوقى جلال ولم تنشر بالعربية بعد – وفيما عدا ما ذكرناه فإن القصة علمية ومرتبطة بعالم الحيوان.. وهذا اللون صعب فى تناوله، إذ ليس أيسر من (أنسنة) الحيوان، وإضفاء صفات البشر عليه.. أما بقاء الحيوانات على حالها، موجهة حديثها للأطفال فهو مفيد ورائع، وإن كان يشق على المؤلف أن يضع نفسه مكانه ويعبر عن متاعبه، والصعوبات التى يواجهها، والمخاوف، بل والمآسى.. والأطفال يتعرفون بحق من خلال مثل هذه الأعمال على حياة الحيوان، وتعتبر (البطة القبيحة) التى كتبها أندرسون نموذجًا رائعًا من هذا اللون.. إنها بطة فى وسط مجموعة من الدجاج، والديوك، والأوز، و... وهى تواجه مشكلة أنها (بطة)، وهى مرفوضة لأنها مختلفة، وهى تواجه خطر الطرد والوحدة، والعزلة، إنها تريد أن تنتمى لجنسها دون أن تعرف سببًا لذلك، وعندما تكبر وتنضج يرحب بها البط.. نعم، هى قصة رمزية، لكنها علميًا سليمة فيما عدا الجانب الخاص بأنها تنطق (يظهر هذا اللون فى : الحصان الأسود الجميل : أنا سويل، خيال الحقل : عبدالتواب يوسف، الفيل كونجو : أيوجيه سميث).

ثالثًا : قصص الحيوانات كحيوانات ـ بشكل موضوعى ـ فى عالمها الخاص، كما يراها مراقب عن قرب، تواجه مشاكلها، وتحارب أعداءها.. وقد تعالج هذه القصص عالم الإنسان والحيوان معًا، وهى هنا تكون حيوانات أليفة فى الغالب، وهى هنا لا تفكر، لكن الناس يفكرون لها أو يتصورون أفكارها ويعبرون عنها، وهى لا تنطق، بل كل ما يصدر عنها أصواتها العادية الطبيعية: المواء، النباح، الصهيل، النهيق... ألخ.. وهذا اللون أكثر ألوان قصص الحيوان انتشارًا ويلقى إقبالًا متزايدًا من أطفال تزيد أعمارهم على الثامنة.. إن الطفل هنا مشاهد ومراقب ومتفرج على عمل فكاهى، أو مأساوى، يتابع أحداثه فى عالم غريب عليه، لذلك يستثير حب الاستطلاع فى نفسه، ويوقظ مشاعره ويشحذ أفكاره، خاصة وهو لن يستطيع أن يتصور ما سيحدث : نعم، هو يعلم أن الأم سوف تحمى صغارها ولو ضحت بحياتها، لكن وسائل الأم للدفاع عن صغارها ستكون جديدة عليه، وانتصارها أو هزيمتها أمر غير مؤكد، ومشكوك فيه.. إنه يحاول أن يستنتج ما يريده منه كلبه الصغير، لكنه قد لا يكون على صواب فى استنتاجه، لذلك ربما تقع أحداث وأحداث.. إن عنصر الشك وعدم اليقين يغلب على هذا اللون من القصص التى يكتبها المؤلفون المعاصرون، ويجعلونها أكثر إثارة من القصص الأخرى.. وإذا ما كان هذا اللون متفقًا بحق مع طبيعة الحيوان وقدراته فإننا سوف نجد فيه نبعًا للمتعة والمعرفة معًا، لطفل عصرنا خاصة ذلك الذى يعيش فى المدينة (وربما كانت الكلبة لاسى عن إريك نايت هى أوضح مثال لهذا اللون، ومنه أيضًا "ملك الريح" عن مرجريت هنرى وحازت

جائزة نيوبرى وترجمتها مؤسسة فرانكلين إلى العربية، وتدور أحداثها فى المغرب.. وكذلك قصة فليكا عن مارى أوهارا).

هذه الألوان الثلاثة من قصص الحيوان يمكن تقسيم كل لون منها إلى فروع عدة، لكنها فقط وجدت لكى نستطيع على ضوئها دراسة هذا اللون الأدبى، وتناوله بالتحليل.. ومما لاشك فيه أن أول ما يخطر على البال بعد هذا التقسيم هو ذلك السؤال : ماذا عن قصص الحيوان فى ألف ليلة، وإلى أى لون تنتمى ؟!

ماذا نقل العرب والغرب من ألف ليلة للأطفال ؟!

كان العرب والغرب فى اقتباساتهم عن "ألف ليلة" للأطفال يركز على عدد من القصص، دار فى فلكها، ولم يخرج عنها إلا قليلًا.. وكان التركيز على ما يلى:

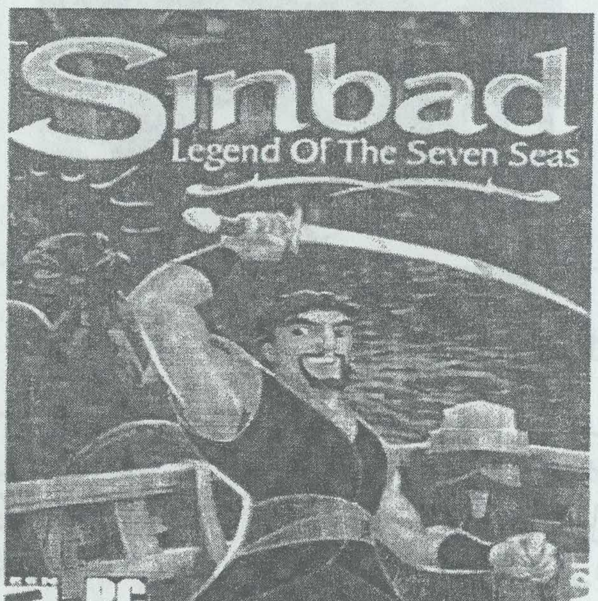

أولًا : قصص المغامرات : وأهمها "السندباد البحرى" وقد استأثرت بالكثير من الاهتمام، فالدول الغربية فى غالبيتها دول بحرية، وكانت رحلة ماجلان حول الأرض، ورحلة فاسكو داجاما حول إفريقيا، ورحلة كولمبس لاكتشاف أمريكا، قد جعلت الاهتمام بالبحر سمة أساسية فى أدب الأطفال. وبالطبع لم

يتوقف الأمر عند "السندباد" بل تجاوزه إلى "أبوصير وأبوقير" والملك عجيب بن خصيب وعبدالله البرى وعبدالله البحرى... إلخ.

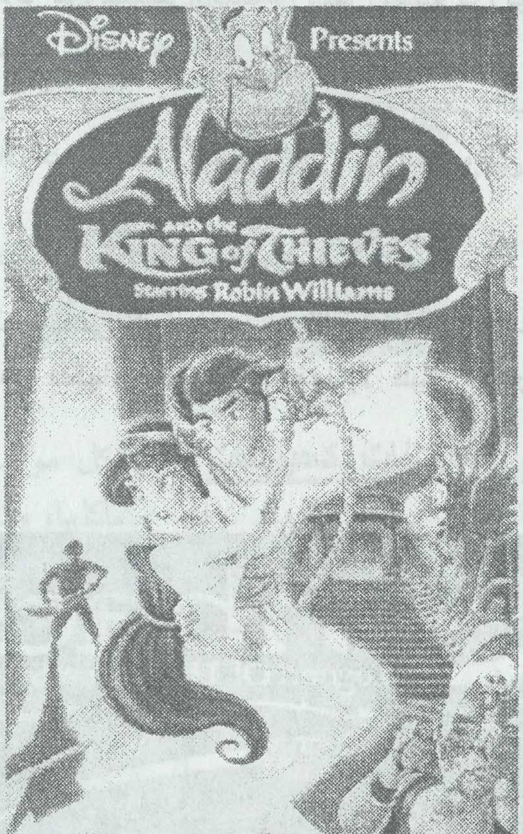

ثانيًا : قصص الخوارق : وكانت علاء الدين والمصباح العجيب وعلى بابا (وافتح يا سمسم) وعفريت الزجاجة هي أكثر هذه الخوارق لفتًا لأنظار الكتاب الغربيين، وكانت (شبيك لبيك) من الكلمات التى اجتذبت إليها القراء الصغار، بجانب خوارق مثل (بساط الريح) اخذت بتلابيب القراء الكبار والصغار.

ثالثًا : قصص ألف ليلة : كان إطار قصص ألف ليلة وحكاية شهريار وشهرزاد مما فتن الغربيين واستحوذت شخصية (الراوية) على عقل وقلب القراء الصغار، وأثارت خيالهم، وقلدوه كثيرًا (روبرت لويس ستيفنسون فى

ألف ليلة الجديدة، وقصص بوشكاشيو الإيطالية ديكاميرون.. والعملاق مترجمان).

ولم تلق قصص الحيوان فى ألف ليلة نفس الاهتمام، إذ كان تراث أيسوب القديم، ثم القصص الشعبى الذى ظهر مع بداية عهد النهضة مثل أعمال بيرو ولافونتين فى فرنس، أكثر جاذبية من قصص الحيوان فى ألف ليلة، خاصة وهو متناثر وجاء عرضًا بهدف الوعظ.

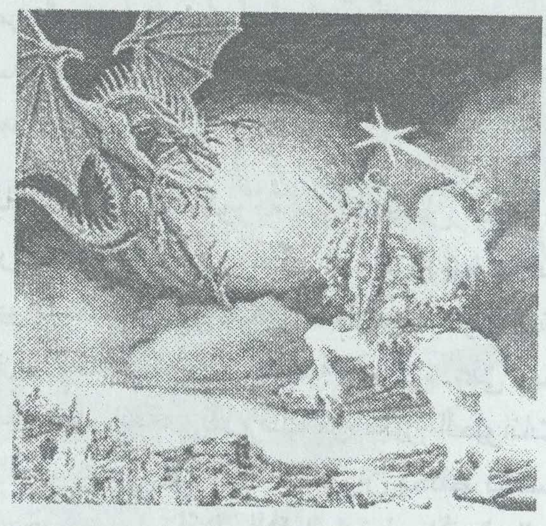

ماذا فى ألف ليلة من قصص الحيوان؟

هذا العرض القيم لموضوع قصص الحيوان فى ألف ليلة – للدكتورة سهير القلماوى – لابد أن يستوقفنا.. لقد راحت تجمع هذا القصص لينتظم عقدًا : بعض حباته من اللؤلؤ والبعض من الزجاج، وهى تحلل كل عمل من البداية.. الحمار والثور – أطول قصة من قصص الحيوان فى هذا الكتاب وأزخرها بالمادة والحوادث، وهى القصة الوحيدة الكاملة بينما غيرها مجرد خبر يروى أو نادرة تقص.. ويدخل عليها عنصر الإنسان فى شخصية (صاحب الزرع) ونلمح تأثرًا بما قيل عن سيدنا سليمان ومعرفته بلغة الحيوان.. ثم يظهر عنصران جديدان، "الديك والكلب"، والحيوان فى القصة يفهم عن الإنسان، والعكس صحيح، دون حديث مباشر.

وهناك فى الجزء الأول قصص الطيور ـ منها قصة الملك يونان والحكيم روبان ـ وفى أول الجزء الثانى قصة الثعلب مع الذئب وابن آدم.. وأول مجموعة قصص الطيور عن الطاووس والطاووسة وبقية الحيوانات الهاربة من ظلم الإنسان وقسوته، وعندما يمسك الإنسان بالبطة يكون تفسير ذلك أنها تركت التسبيح.. وتأتى بعد ذلك قصة عابد وحمامة.. والجزء الثانى من هذه المجموعة من قصص الحيوان جاء بهدف التعليم والوعظ، مثل فصة الثعلب والذئب، وهذا اللون شبيه بما جاء فى كليلة ودمنة.

وهناك لون من قصص الحيوان : هو فيها البطل، والمفسر لغوامض الكون، كما نرى فى قصة جانشاه الذى رحل إلى عالم الطير، وعالم الوحوش، وعالم القرود، وعالم النمل..

وقد يكون هناك حيوانات أسطورية مثل الحصان الطائر وهو من الأبنوس. فى قصة الطاووس والبوق والفرس (ابتكر المؤلفون شخصيات أسطورية لا هى بشر، ولا هى حيوانات، إنما هى مجرد مخلوقات غريبة أشهرها "المومونز" وهم أبطال قصص "تاف يانسون" الفنلندية الحائزة على جائزة أندرسون.. ثم أعمال تولكين الشهيرة الرائعة، ولعل ذلك من تأثير الحيوانات التى يتشكل على صورتها الجن، والحيوان فى ألف ليلة إما حيوان يحتفظ بالصفات الأساسية التى عرفت عنه، وإما مجرد صورة لقول الأقوال وفعل الأفعال المراد الاتعاظ بها..

ويهمنا أن نلفت النظر إلى أن البعض يتصور أن كل قصة فيها حيوان تصلح للأطفال، وهذا بالطبع غير صحيح، بل أن كثرة المواعظ ـ طابع قصص الحيوان ـ جعلت الأطفال فى عصرنا هذا يضيقون بها، ويرونها، "تعليمية ـ تربوية ـ وعظية" أكثر مما يجب، لذلك ينأى الأطفال عنها، وانصرفوا.. على أن حاجتنا إلى إعادة صياغة قصص الحيوان فى ألف ليلة قد باتت ضرورية شريطة أن نحسن الاختيار، وأن ننفض أيدينا مما هو ليس إضافة، خاصة وأن العرب والغرب لم يعطيا عناية كافية لهذا الجانب من قصص ألف ليلة.

تطور قصص الحيوان فى عصرنا الراهن :

كتاب العالم المتقدم لا يتوقفون عند "القديم" بل هم دائمًا فى تطور، وهم يبدأون من حيث انتهى الآخرون، حتى تكون لهم إضافاتهم وابتكاراتهم وإبداعاتهم.. لذلك تختلف قصص الحيوان المعاصرة عن تلك القصص القديمة

اختلاقًا كبيرًا، وإن استوحى البعض جانبًا من الأعمال القديمة، ملتزمًا بروح العصر، واضعًا نصب عينيه مواكبة ما يجرى فى دنيانا، محددًا أهدافًا تتمشى مع إنسان الفضاء والذرة والأقمار الصناعية..

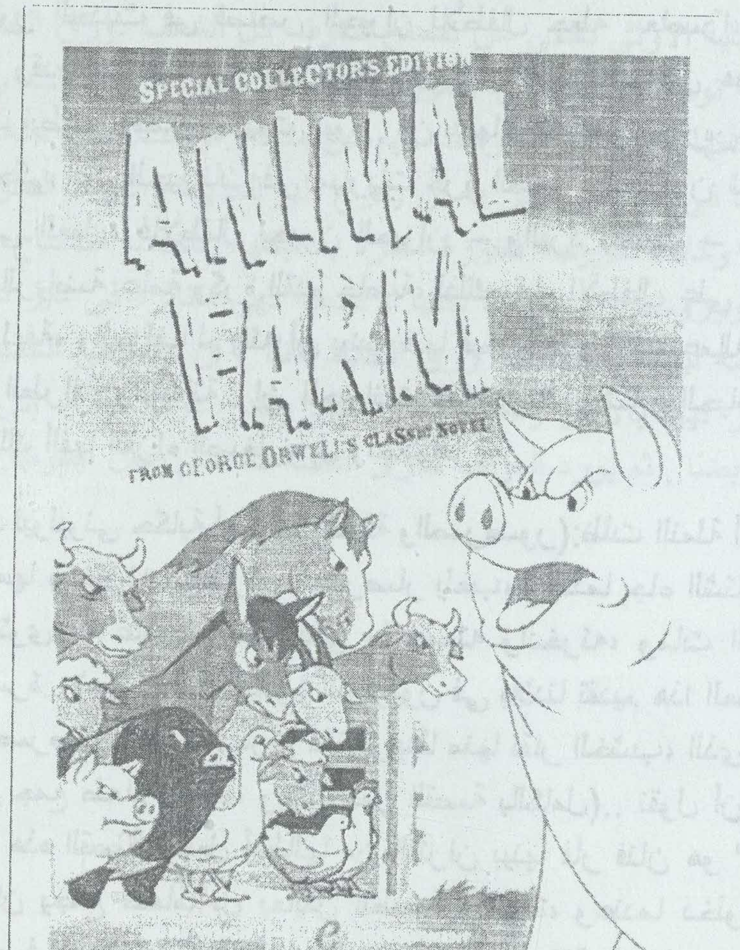

وإذا كان ابن المقفع قد اختار الحيوانات قناعًا يخفى به أفكاره السياسية فإن عصرنا حفل بمن فعل نفس الشئ، وعلى نطاق أوسع.. وربما كانت "مزرعة الحيوانات" للكاتب جورج أورويل – صاحب رواية عام ١٩٨٤ – هى أشهر عمل سياسى فى هذا القرن، اتخذ من الحيوانات أبطالًا، لأحدث رواية تتحدث عن "الثورات"، وكيف يتصرف أصحابها، ويأكلون بعضهم البعض.. ولعله الإعجاب بهذا العمل – أو لعله شئ آخر – هو الذى جعل "مزرعة الحيوانات" تترجم إلى العربية بأقلام ثلاثة : المرحوم عباس حافظ، وعبدالحميد الكاتب،

وثروت أباظة.. وليس أيسر من الرجوع إليها، لذلك لن نطيل الحديث عنها، خاصة وهى عمل للكبار، ويستهدف فى المقام الأول السخرية من "الثورات" ومن الكتلة الشرقية خاصة..

والتطور الحديث فى قصص الحيوان للأطفال جعله معاصرًا، بل شديد المعاصرة وقد نقلت إلينا د. سهير القلماوى إبان مسئوليتها عن هيئة الكتاب بعض كتب إيطالية، قصصها بنت اليوم.. من بينها مثلًا (القرد حارس المرمى)، والقصة تحكى عن الحيوانات فى مباريات كرة القدم، وهذا بدون شك يضفى طرافة على العمل، فالأطفال يحبون الحيوان – والقرد بالذات – وهم أيضًا شغوفون بالرياضة عامة وكرة القدم خاصة، لذلك يقبل الآطفال على قراءة هذه الكتب فى لهفة، والمؤلف لم يفته أن يضع فيها قيمًا وأفكارًا فى أعماله هذه جنبًا إلى جنب الطرافة والحداثة.. إن الحيوانات تمارس الرياضة والحياة الطبيعية كالبشر، لذلك ألفها القراء الصغار، بل وأجادوها..

والتقط ليوليونى حكاية أيسوب (النملة والصرصور):ظلت النملة أيام الدفء تجمع طعامها وتختزنه بينما راح الصرصار يلعب، وعندما جاء الشتاء – أوان البيات الشتوى – عاشت النملة على ما جمعته وادخرته، ومات الصرصار جوعًا وحسرة.. (حاول أحد عباقرة التليفزيون فى بلادنا تقديم هذا العمل، وكان يرى فى الصرصار حشرة ضارة، فاختار بدلًا منها نقار الخشب، الذى لا يحتاج كطائر إلى جمع طعام للشتاء، وبذلك دمر القصة بالكامل).. نقول أن ليوليونى أعاد كتابة هذه القصة وجعل أبطالها من الفئران بينها فأر فنان هو "فردريك" الذى لم يكن يجمع طعامًا بل يعايش الطبيعة والحياة، وعندما دخلوا الجحر، واستكان هو فى ركنه بدون طعام، سألوه عما سيفعله، فقال لهم إنه يحس بأشعة الشمس تتخلله وتدفئه وأن صورة المياه الجارية فى الأنهار تطفئ عطشه، وأن الورود الملونة تملأ عليه خياله... و... وعندما سكت طلبت منه بقية الفئران أن يستمر فى كلماته الرائعة التى جعلت جحرها الرمادى الكئيب كحديقة مزهرة.. وحملت إليه الفئران الطعام طيلة فترة الشتاء، إن على المجتمع أن يدفع للشاعر والفنان والمفكر مقابل شعره وفنه وفكره.. إنه هو أيضًا يجمع الصور والأخيلة والأفكار.

وتحت يدى (فابيولات) أى قصص وعظية على لسان الحيوان مطبوعة فى أمريكا فى الثمانينات، وصاحبها (أرنولد لوبل) حائز على جائزة كالديكوت فى

الرسم، وجائزة نيوبرى فى التأليف.. وسأختار بعضًا من حكاياته للتدليل على عصريتها (سبق لى أن قدمت جانبًا منها فى عيد الطفولة منسوبة إلى صاحبها).. ومجموع الحكايات عشرون.

والحكاية الأولى تحكى عن تمساح شغوف كل الشغف بورق الحائط الملون فى غرفة نومه، يتطلع إلى زهوره المنتظمة ساعات وساعات ويراها فى صفوفها كأنها جند لا يخرج واحد منهم عن مكانه.. وقالت له زوجته إنه يقضى وقتًا طويلًا فى فراشه وأجدر به أن يخرج إلى الحديقة والهواء الطلق والشمس الساطعة، وكانت الزوجة فخورة معتزة بحديقتها، فأخذت التمساح لجولة بين زهورها وورودها وأشجارها، لكنها لم تعجبه فهى متناثرة فى غير نظام، وعاد لغرفة نومه ليواصل مشاهدة ورق الحائط قائلًا : إن هذه هى الحديقة الحقيقية التى يشعر فيها بالأمان والسعادة.. ولم يعد يغادر غرفة نومه، إلى أن أصبح شاحبًا مريضًا.. ثم يورد المؤلف مغزى القصة كما كان يفعل أيسوب..

وتعالج الحكاية الثانية "الروتين" وضرورة الخروج عليه.. والثالثة عن ملك، حين يرتدى ثيابه الفاخرة، وينحنى له الجميع، لكن خنفسة لم تنحن وضاق بها لكنها راحت تؤكد أنها لصغرها لا يستطيع أن يرى انحنائها، فمال عليه إلى أن سقط فى الطين سقطة مدوية.. إن الذين يسقطون من عل يتحطمون.

وهكذا تمضى الحكايات، وتصل إلى ذروتها عند "جمل" أراد أن يصبح راقص باليه.. وراح يتدرب على ذلك، وبذل جهدًا كبيرًا فى أن تصبح حركاته

متقنة جميلة متزنة، وكان يقف على أطرافه ويتحرك بخفة ورشاقة إلى أن أتقن الحركات الأساسية، وظل يتدرب بلا كلل – إنه صبور – لشهور طويلة، تشقق خفه خلالها ونحل عوده، ولم يكف إلا بعد أن اعتقد أنه قد أصبح راقص باليه، واستدعى أصدقاءه ليشاهدوه، ولكنهم مع الأسف لم يبدوا إعجابهم به، بل لقد رأوه لا يصلح لهذا الفن على الإطلاق، وابتعدوا عنه ضاحكين، ومع ذلك فقد ظل على يقين من أنه أصبح راقص باليه، بل وراقص جيد ورائع، لهذا راح يرقص لنفسه ويشعر بالرضا.. ذلك الرضا الذى يحس به هؤلاء الذين يحاولون إمتاع أنفسهم.

ويحكى لنا لوبل عن (العنزة) التى أرادت أن تنقص وزنها بالامتناع عن أكل الحلوى، لكى تصبح رشيقة، وعن...، وعن... إنها حيوانات تعيش القرن العشرين، ولا تقل أبدًا عن رائدة الفضاء (الكلبة لايكا).

ولعل شخصية (برابابا) التليفزيونية تكون ثمرة ألف ليلة وعقيدة التناسخ عند الهند فى أسلوب عصرى، يتفق مع سعة الخيال فى أيامنا هذه، وقد استخدم الرسام شخصيته هذه فى كتبه، وهى هلامية قادرة على أن تصوغ نفسها على الصورة التى تريدها، لتحل مشكلاتها.. وتقول د. سهير القلماوى فى كتابها "ألف ليلة".. والإنسان أو الجن لا يتقيد بأن يتخذ صورة من صور الحيوان، وإن كثرت صورة القرد والحية، وإنما الإنسان قد يكون دبًا أو طائرًا أو كلبًا أو غزالًا، والجن قد يكون أسدًا، وهكذا.. أما الجنى فيتحول إلى صورة الحيوان بإرادته ولوفاء أغراضه، وأما الإنس فإن ذلك لا يكون له إلا إذا كان ذا مقدرة سحرية، ونجد صورة لهذا التحول المتتابع فيما وصف لنا من قتال بين العفريت وبين بنت الملك فى قصة الصعلوك الثانى، فكلما اتخذ صورة حيوان اتخذت هى صورة الحيوان الذى يفترس الحيوان الذى أصبح على صورته.

أى شئ يكون "برابابا" إذا لم يكن هو "الجن" فى ألف ليلة؟! إن الحديث هنا يقتصر على تأثر أدب الغرب للأطفال بقصص الحيوان فى ألف ليلة.. ونحن نلمح آثارًا أخرى فى مجالات الجن، والسحر، والقوى الخارقة.. وإذا كان عفريت الزجاجة، ومارد خاتم سليمان، وخادم مصباح علاء الدين من الشخصيات الخارقة فنحن نجد الكثير من ملامحها فى الرجل الأخضر ورجل بستة ملايين دولار وسوبرمان والمرأة الخارقة.. فارق واضح بينها : إن المارد

العربى الخارق يأتمر بعقل الإنسان، بينما تتصرف خوارق الغرب من عند باتها، ومن هنا يأتى الخوف منها والفزع.. وأنا انتصر للخوارق العربية رغم أن تفسير البعض لها على أنها لون من التعويض لجأ إليه "العبيد" ليقال لهم :

– شبيك لبيك، عبدك بين إيديك!

على أننا نجد ملامح القوى الخارقة فى كثير من حيوانات قصص السندباد.. وعلى شاكلتها كان ابتكار بعض نماذج حيوانية لقوى خارقة..

استخدام الحيوان فى القصص الدينى الإسلامى :

استهدف القصص الحيوانى – خلال تاريخه الطويل – التسلية والفكاهة، واتجه فى طور من أطواره إلى الموعظة الخلقية.. وترى د. سهير القلماوى أنه قد انحرف عن ذلك متخذًا مظهرين :

المظهر الأول : اتخاذه وسيلة إلى قول ما لا يمكن أن يقال خشية بأس أو خوف سطوة، فينتقد الملوك مثلا، والملك أسد، والناقد ابن آوى كما نجد فى كليلة ودمنة.

المظهر الثانى : إنه أصبح يتخذ وسيلة لقص القصة دون أى غرض، وأصبح الحيوان فى القصة مقصورًا لذاته كما نجد فى قصة (الثعلب رينار) التى نظمها شاعر ألمانيا العظيم : جوته.

وبودى أن أضيف هنا مظهرًا ثالثًا، لعله كان نتيجة القول بأن "الأساطير الدينية قصص، وفى هذا القصص لعب الحيوان دورًا هامًا فى تفسير غامض وأخفى على الإنسان من هذا الكون"، "وبظهور الديانات السماوية أخذ هذا النوع يحيا حياة جديدة حاملا بقايا ما علق به من آثار القصص والأساطير، والتف حول حوادث الديانات الجديدة فصانته وحفظته، بل قل أحيته وردته إلى شئ من وقاره وجلاله، فحول حية موسى تجمع كثير مما كان يعتقد فى الحيات ولكن مما كان يقص عنها أيضًا، وحول فهم سيدنا سليمان للغة الحيوان التف كثير من القصص الحيوانى الذى يدور حول مظاهر الاتصال والمعاملة بين الإنسان والحيوان ومظاهر ما للحيوان من دور فى الخليقة دينيًا".

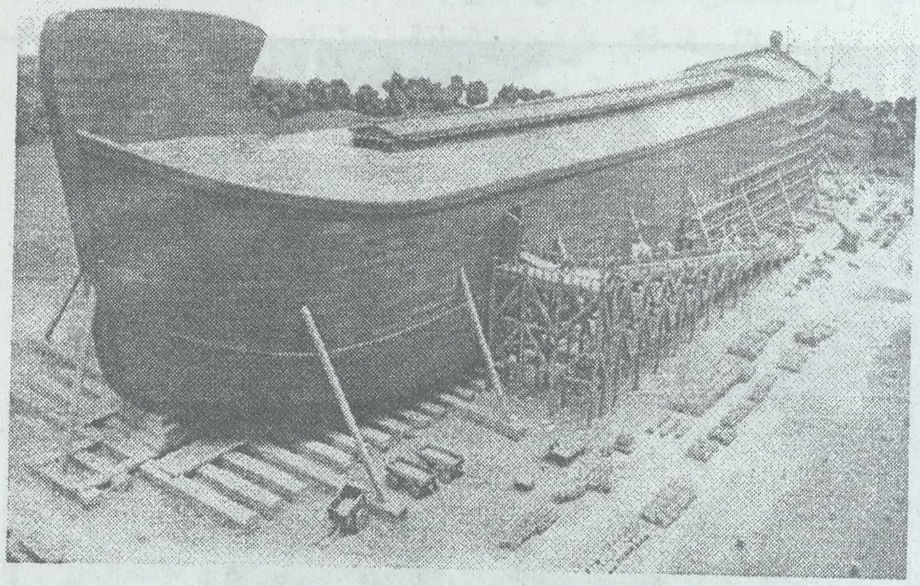

وربما كانت سفينة نوح بحيواناتها هى أيضًا من الأشياء الموحية بالقصص الدينى.. أيًا كان، فإن المظهر الثالث الذى أرى أن القصص الحيوانى قد اتجه إليه هو أن يكون الحيوان إطارًا للقصة، أو راويًا لها بحكم أنه قد شهد أحداثها وعاصر ظروفها، وهو أسلوب حاولته منذ وقت مبكر من خلال ميكروفون الإذاعة، حين بدأته على لسان فيل أبرهة، يحكى أحداث بناء الأحباش لكعبتهم فى اليمن، وعندما لم يحج إليها الناس، زحف أبرهة على فيله يهدم كعبة سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل فى مكة.. لقد رويت هذه القصة على لسان الفيل فى الاحتفال بذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام متواريًا خلف الميكروفون.. وتتابعت القصص من هذا اللون : حمارة حليمة السعدية تحكى عن فترة الرضاعة، وتتابعت القصة على لسان البراق تأتى قصة الإسراء والمعراج، وعلى لسان الناقة، وحمامة الغار، وحصان سراقة بن مالك تأتى قصص الهجرة، وهكذا.. وشكلت عشرون قصة من هذا اللون حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقال عنه د. عبدالعزيز كامل "يقص علينا قصة الرسول عليه الصلاة والسلام على ألسنة الحيوانات والطيور والظاهرات الطبيعية من جبال وآبار، وإذا هذا المنهج قديمًا فى تقريب المعرفة إلى الكبار والصغار، إلا أن كتابة

السيرة النبوية بهذا الأسلوب السهل الممتع فتح جديد فى تقريبها إلى أبنائنا الصغار".

وتكررت التجربة بشكل أكثر نضوجًا فى حياة الخليل إبراهيم، وعلى ألسنة الحيوانات أيضًا كانت هناك عدة قصص.. كبش الفداء.. الطيور الأربعة.. العجل السمين.. البعوضة الرهيبة.. ويسر ذلك للفنانين رسم الكتب الدينية، كما مكن دار الكتاب المصرى من إصدارها بالألوان فى صورة زاهية.

ومن خلال الإذاعة كانت هناك ثلاثون حلقة بعنوان (من قصص القرآن عن الطير والحيوان) قدمتها المرحومة السيدة سعاد حسن وأذيعت فى رمضان

١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) وضمت كل الحيوانات التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم تروى حكايتها وأغلبها له ارتباط بواحد من أنبياء الله.. وكان المنهج فى هذه البرامج أن تستخلص القصة، وأن نأتى بمادة علمية من دوائر المعارف عن الحيوان فى هذه القصة، لكى تتضمنها الحلقة بحيث تذوب داخل النص.. وقدمنا من هذه الحيوانات :

(فيل أبرهة – غراب قابيل وهابيل – حوت يونس – ناقة صالح – هدهد سليمان – نملة صغيرة – دابة الأرض – ذئب يوسف – ثعبان موسى – سبع بقرات – الجياد الصافنات – البعير والعير– البقرة الصفراء – العجل الذهبى – سمك موسى – طير داود – غنم القوم – نعجة واحدة – حمار عزير – كلب

الكهف – هيئة الطير – سفينة نوح – الضفادع والجواد – بيت العنكبوت – الجمل والشاة – السلوى (السمان)... إلخ)

إن أسلوب رواية القصص على لسان الحيوان من أجل المعرفة والموعظة معًا هو الجديد فى هذا الباب، وهو إضافة لقصص الحيوان كأقنعة، وكموعظة، وكمتعة.. فالقصص القديم لم يكن يعنى بأن يحدثنا الحيوان عن نفسه بإضافة ثمرة لما لدينا الآن من معلومات واسعة عنه، ولا كان الحيوان يروى بالكامل قصة دينية.. إنما هى قصة موجزة ذات مغزى واضح، سياسى كان أو أخلاقى..

هل هناك من شك فى أن وراء هذه الفكرة : ألف ليلة، وكليلة ودمنة، و "البنشاتنترا"؟

ليتنا نحسن استثمارها والتأثر بها كما حدث معهم...

المراجـــع

١. ألف ليلة / سهير القلماوى

٢. الأطفال والكتب (بالانجليزية) / مارى هل أربثنوت

٣. فى أدب الأطفال / على الحديدى

٤. خرافات لافونتين فى الأدب العربى / نفوسة زكريا سعيد

٥. القصص الحيوانى / حامد عبدالقادر

٦. جمهور الأطفال / فيليب بوشار

٧. ابن المقفع / عبداللطيف حمزة

٨. أدب الأطفال / هادى نعمان الهيتى

(هذا بالإضافة إلى الأعمال المشار إليها فى ثنايا الدراسة وبالذات القصص العربية والأجنبية، ولم أورد عملًا واحدًا لم يسبق الاطلاع عليه).